قلعة الخلفة (البو سلطان)
دراسة آثاريَّة ميدانيَّة

أ.م.د. رجوان فيصل الميَّالي
جامعة القادسية/كلية الآثار

Al-Khilafa Castle, (Albusultan) Field, Archaeological Study

Asst. Prof. Dr Rajwan Faisal Al-Mayali
Al-Qadisiyah University/College of Archeology

الملخَّص

يُعنى هذا البحث بدراسة قلعة الخلفة الكائنة في محافظة بابل، قضاء المدحتيَّة، وهي من القلاع التراثيَّة التي بُنيت في بدايات القرن العشرين المنصرم، وما زال زمن بنائها محلّ نقاش، وسوف نحاول مناقشة هذا الأمر؛ لأنَّ هذا البحث يسلِّط الضوء على هذه القلعة وجميع تفاصيلها التاريخيَّة، وطرزها المعماريَّة، المواد البنائيَّة التي شُيِّدت بها، والوسائل الدفاعيَّة والحربيَّة التي زُوِّدت بها القلعة؛ لغرض تحقيق الهدف الرئيس، وهو إيجاد توازن سياسيً وعسكريّ في المنطقة؛ لأنَّها من المناطق المأهولة والمزدحمة بالسكن العشائريّ، والتي دائمًا ما كانت تشهد الكثير من الحروب والنزاعات، وفضلًا عن الجانب التاريخيّ، فإنَّنا قمنا بدراسة القلعة دراسة آثاريَّة ميدانيَّة؛ بالمسح الأثريّ وتقنيَّاته وأدواته، وكذلك قمنا بعمل مقارنات لهذه القلعة مع مثيلاتها من القلاع المجاورة لها.

الكلمات المفتاحيَّة: البو سلطان، المدحتيَّة، عمارة القلاع، العناصر الدفاعيَّة والحربيَّة.

Abstract

This article is concerned with studying and documenting Al-Khilafa Castle located in the province of Babylon, Al-Medhatiyah district, and it is one of the historical castles that was built the beginning of the last twentieth century. The castle was provided for the purpose of achieving the main goal, which is to find an economic and military balance in the region because it is one of the areas inhabited by clan dwellings and which are always ready for fighting and wars. The article also aims to analyze the essence of the building and compare it with some of the nearby castles.

Keywords: Albusultan, Medhatiyah, architecture of castles, defensive and military elements.

المقدِّمة

للقـلاع والحصون أثر كبير في حماية الأوسـاط المجتمعيَّة، الحضريَّـة أو الريفيَّة، في السـهل أو الجبل، في الصحراء أو الوادي، سـواء كانت قلاعًا بنتها زعامات عشـائريَّة، أو قـلاع بنتهـا الحكومة، فـإنَّ وجودها يعـدُّ ضمانًـا حقيقيًّا لأصحابهـا في الحفاظ على حقوقهم، وعدم التجاوز عليهم، بما تقدِّمه تلك الأبنية ذات الطابع العسكريّ والحربيّ، مـن خدمات جليلة لأصحابهـا، فهي الحصن المنيع الذي يـدرأ الأخطار والاعتداءات الخارجيَّة، لذلك حظيَ هذا النوع من المباني باهتمام الخلفاء والولاة والأمراء والسلاطين بمختلـف العصور، ومن تلك القـلاع قلعة الخلفة موضوع بحثنا، وهي نموذج للقلاع التي بُنِيت في العصر الملكيّ في العراق، أواسط العقد الرابع من القرن المنصرم، في منطقة جغرافيَّـة مهمَّة في قلـب العراق، وقلب الفرات الأوسـط، منطقة محتدمـة ومتصارعة سياسـيًّا؛ لذلك بُنيت الكثير من هذه القلاع قريبًا مـن القلعة موضوعة البحث؛ لأيجاد نوع من التوازن في القوى.

تتميَّـز قلعة الخلفة بطراز معماريّ جميل وفريد مـن نوعه، ولأهميَّة الحفاظ على هذا النوع مـن العمائر من الضياع والاندثـار والتخريب، جاءت هذه الورقـة البحثيَّة لتبيِّن أهميَّـة هذا الصرح المعـماريّ المميَّز، وطرق ومعالجات المعمار البنائيَّة، فقد قُسِّـم البحث على ملخَّص ومقدِّمة ومبحثَين، تناولنا في الأوَّل موقع القلعة وتاريخ بنائها، والأحداث التي دارت بالقرب منها، مع الاشارة إلى الأنهار المحيطة بها. أمَّا المبحث الثاني فخصَّصناه للحديث عـن تخطيط القلعة وعمارتهـا، مع الإيضاحات الموضوعـة في الملحق الخاص

بالصور والمخطط، مع ذِكر أهم السُّبل والمعالجات المعماريَّة والمناخيَّة والعسكريَّة التي نفَّذها المعمار فيها، ممَّا له الأثر الأكبر في جعل هذه القلعة تحفة معماريَّة شامخة وصامدة متحدِّيةً الزمن وغيره من العوامل الأخرى، وخلصت دراستنا إلى مجموعة من النتائج.

المبحث الأوَّل

الموقع والتاريخ

تقع القلعة في محافظة بابل، ضمن الحدود الإداريَّة المشتركة بين قضاء الهاشميَّة، ناحية الحمزة الغربيّ (المدحتية)[1]، وأطراف قضاء المحاويل[2]، وهي إلى مركز ناحية الحمزة الغربيّ أقرب، وذلك وفق الإحداثيّ (38S 471369 3588689) (الشكل١)، القلعة شاخصة في قرية الباشيَّة التي سمِّيت نسبةً إلى نهر قامت بشقِّه عشائر البو سلطان يُدعى نهر الباشيَّة، وتبعد عن شمال شرق مدينة المدحتيَّة مسافة (٥ كم)، وعن شرقي مركز محافظة بابل (٣١كم)، بدأ العمل ببناء القلعة وحفر النهر عام ١٣٦١هـ/ ١٩٤١م،

(١) تقع قصبة مدينة الحمزة الغربيّ (المدحتيَّة) في الجنوب الشرقيّ لمدينة الحِلَّة، وسمِّيت بهذا الاسم نسبةً لمؤسِّسها الوالي مدحت باشا عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، وتبعد عنها (٣٠كم)، وهي قريبة من دائرة العرض (٣٣)، وخط الطول (٤٦)، وتعدُّ المدحتيَّة محطَّة تجاريَّة مهمَّة، ويمرُّ بها الطريق الذي يقسم البلاد من شرقه إلى غربه، وفيها مرقد الإمام الحمزة من ذريَّة العبَّاس بن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام الملقَّب بـ(أبي يعلى)، ونسبةً له سمِّيت المدينة باسم (الحمزة الغربيّ). للمزيد من التفصيل، ينظر: عوض، عبد الرضا، الدرَّة البهيَّة في تاريخ المدحتيَّة، ص٢١-٢٢، ٥٠، ٢٠٢، وينظر: الخفاجيّ، المراقد والمقامات البهيَّة في الحِلَّة السيفيَّة، ص٧٦-٧٧.

(٢) يقع قضاء المحاويل شمال مدينة الحِلَّة بمسافة (٢٠كم)، بدأت قصبة المحاويل بشكل قرية صغيرة يرجع تاريخ نشأتها إلى العصر العثمانيّ، ومن ثمَّ توسَّعت وتطوَّرت، وفي عام ١٩٢١م استُحدِثت كناحية ومركزها قرية الصبَّاغيَّة، ترتبط أداريًّا بمركز قضاء الحِلَّة، وبعد مدَّة من الزمن انتقل مركز الناحية من الصبَّاغيَّة إلى قصبة المحاويل. للمزيد من التفصيل عنها، ينظر: الطرفيّ، الشيخ عزيز جفَّات، مدن عراقيَّة على ضفاف الفرات، ج٢، ص١٤٨. وينظر: الحسنيّ، عبد الرزَّاق، العراق قديمًا وحديثًا، ص١٤٥.

من قبل الشيخ خلفة حسن الصيَّاد السلطانيّ[1]، وانتهى من بنائها وحفر النهر وجريان المياه فيه عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م.

البيئة التي تجاور القلعة والمناطق المحيطة بها ذات مساحات زراعيَّة واسعة، تعود أغلبها لعشائر البو سلطان وعشائر أخرى[2]، وحُفِرت فيها الكثير من الأنهر، وهذا يزيد من حصانة القلعة موضوع بحثنا، فضلًا عن بقيَّة القلاع الأخرى من الناحية الطوبوغرافيَّة والتحصينيَّة، إذ ورد بهذا الشأن ما يأتي: «الجداول التي تتفرَّع من ضفة نهر الحِلَّة اليسرى، هي: حصن البيكات، المحاويل، وخنفارة بتة، خاتونيَّة، فنديَّة، النيل، الجدول، الورديَّة، بنشَّة، دولاب، غنية، أبو حسان، فنهرة، بيرمانة، مشيمش (بالتصغير)، نهر السيِّد، حجاب، روبيانة، البو عبد الله[3]، باشيَّة، كدس، البزل، عوادل، زبار، عثمانيَّة، شوملي، ظلميَّة، أبو جماغ»[4]، وتتوزَّع مجموعة من القلاع في المناطق القريبة من القلعة موضوعة البحث والمحيطة بها، وهذا بدوره يزيدها حصانة واستحكام من الناحية العسكريَّة والتخطيطيَّة والمعماريَّة، إذ ورد بهذا الشأن مايأتي: «عندما استقَّر الحال مع رؤساء البو سلطان من آل الجريان والهيمص في أملاكهم،

(١) هو الشيخ خلفة حسن الصيَّاد السلطانيّ من عشيرة البو عبدالله، إحدى عشائر البوسلطان الزبيديَّة، لهم تاريخ يعتزُّون به، ولهم مشاركات في ثورة العشرين. للمزيد من التفصيل عن عشائر قبيلة البو سلطان وتفرُّعاتها، ينظر: الجويبراويّ، جبَّار عبد الله، عشائر الفرات الأوسط والجنوبيّ في الحِلَّة والديوانيَّة والسماوة والناصريَّة، ص١٠٨، وينظر: تقرير سرِّي لدائرة الاستخبارات البريطانيَّة عن العشائر والسياسة، ترجمة: عبد الجليل الطاهر، ص٢١٢.

(٢) للمزيد من التفصيل عن العشائر الساكنة في تلك المنطقة، وعن مساحات الأراضي التي تمتلكها كلُّ عشيرة، ينظر: السمَّاك، حسن عليّ، عشائر منطقة الفرات الأوسط ١٩٢٤-١٩٤١، ص٤٧.

(٣) للمزيد من التفصيل عن الأنهر والجداول والظواهر الطوبوغرافيَّة في هذه المنطقة، ينظر: الميَّالي، فيصل غازي، لفظة روبيانة أو ربيانة في ناحية المدحتيَّة في محافظة بابل ماذا تعني؟ مباحث فراتيَّة في الجغرافية والتاريخ والآثار، ج١، ص٢٣٣-٢٣٥.

(٤) للمزيد من التفصيل، ينظر: قرى لواء الحِلَّة، الحِلَّة في مجلَّة لغة العرب، ص٣٣.

راحوا يشـيِّدون لأنفسـهم قصورًا فخمـة بُنِيت من الطابوق، وبعـض منها صُمِّم وفق أحسـن الطرازات العمرانيَّة، وجلبوا لها صناع من مدن أخرى، وسـمِّيت تلك البيوت قصور أو قلاع، وتسمَّى الواحدة محليًا (جلعة)، ومنها:

١. قصر موسى عزيز العوَّاديّ، شيِّد سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م.
٢. قصرا محمَّد حنتوش ومهدي شـخير، شيِّدا سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م، في مركز ناحية الشوملي.
٣. قصر غضبان الجريان، شيِّد سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٢٤م من الطين.
٤. قصر سعود المخيف، شيِّد سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٢م، غرب قصبة الشوملي.
٥. قصر محي عبس الهيمص، شيِّد سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، في قرية الزبَّار.
٦. قصر جواد الشنابة، شيِّد سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، في منطقة خيگان.
٧. قـصر جـواد فـارس الجريـان، شـيِّد في أربعينيَّـات القـرن المـاضي في شرق الشوملي.

هـذه البيـوت، أو القصـور، أو القلاع، كـما يسـمِّيها أصحابها؛ لاحتـواء بعضها عـلى (مفاتيـل) قتاليَّة دفاعيَّة لحمايـة سـاكنيها»[1]. ولا بدَّ من الإشـارة إلى أقرب قلعة حصينـة ومحكمة من حيث الشـكل والمضمـون لقلعة الخلفة، هي قلعـة نايف الجريان الواقعـة في منطقـة العـوادل، إذ جـاء بهـذا الشـأن مـا نصُّه: «شـيَّد نايـف الجريان في أواسـط الثلاثينيَّات من القرن المنـصرم قلعة جديدة، وقد بُنيـت بمواصفات فكتوريَّة قديمـة، ومن حولها أبـراج دفاعيَّة، كما في قلاع القرون الوسـطى في أوربـا»[2]، وأيضًا

(١) للمزيد من التفصيل عن القصور والقلاع المنشرة حول القلعة موضوعة البحث، ينظر: عوض، عبد الرضا، الشوملي نشأتها وتطوُّرها- دراسة في الأوضاع العامَّة، ص٥٠-٥٢.
(٢) يظهر من النصِّ في أعلاه أنَّ القلاع الموجودة في منطقة الدراسة كانت تُبنى وفق الطراز الفكتوريّ=

قلعـة النصر الواقعة في إحـدى الضواحي الشرقيَّة لمدينة المسـيَّب التابعة أداريًّا لمحافظة بابـل، التـي بُنيـت عام١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، بحسـب نصٍّ كتـابيٍّ من الجـصِّ مثبَّت في واجهتها[١].

وهـذا النـوع من القـلاع يختلف عـن القلاع الرسـميَّة التـي تبنيهـا الحكومة من حيث مواقع إقامتها، واتِّسـاع مسـاحتها[٢]، ومتانة عمارتها، وقـوَّة تحصيناتها، وغايات بنائهـا، باعتبار أنَّ القلاع التـي تقيمها الحكومة هي أرجح بكثير مـن تلك القلاع التي تقيمها العشـائر؛ بسـبب الامكانات الماديَّة والخبرات الهندسيَّة والعسكريَّة التي تمتلكها الدولـة في أقامـة تلك القـلاع في أماكن مهمَّـة وحيويَّـة، وإحاطتها بالاسـتحكامات المنيعـة المـزوَّدة بكلِّ وسـائل الدفـاع كالخنـادق، والمسـنيات، والأسـوار، والأبراج، والمزاغل[٣].

أمَّـا القـلاع العشـائريَّة، ومنها القلعـة الخلفة موضـوع بحثنا، فهي تقـام عادةً في

=القديـم، أي إنَّها تشـبه العـمارة التي بُنيـت بأمر من قبل الملكـة فكتوريا في المملكـة البريطانيَّة المتَّحـدة، التي بدورها تشـبه الطراز البنائيّ للقلاع العملاقة في القرون الوسـطى، المزوَّدة بكافَّة التحصينات والاسـتحكامات، مثل الأبراج العالية، والمزاغل الشاقوليَّة، والسقَّاطات وغيرها. للمزيد من التفصيل عن عمارة وتخطيط قلعة نايف الجريان، ينظر: الميَّالي، رجوان فيصل، العمائر العسكريَّة في وسط العراق وجنوبه (تخطيطها وعمارتها) ١٩١٤-١٩٥٨م، ص٦٩.

(١) للمزيـد من التفصيل عن عمارة قلعة النصر، ينظر: الشـمَّريّ، إبراهيم سرحان، قلعة النصر في مدينة المسيَّب (دراسة ميدانيَّة)، ص٢٠٧٥.

(٢) للمزيد من التفصيل، ينظر: السـمَّاك، حسـن علّي، القلعة ودورها العسـكريّ والسياسيّ في منطقة الفرات الأوسط (قلعة شخيِّر أنموذجًا)، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٣) للمزيد من التفصيل عن عمارة القلاع العشـائريَّة وأدواتها الدفاعيَّة والحربيَّة، ينظر: الدرَّاجيّ، سـعدي أبراهيـم، عـمارة القـلاع في شـمالي العـراق ١٠٣٥-١٢٨٩هـ/ ١٦٢٥-١٨٧٢م، ص٢٤-٢٥، وينظـر: الميَّـالي، رجوان فيصل، العمائر العسـكريَّة، المصدر السـابق، ص٢٢٣-٢٢٢.

وسط مقاطعاتهم الزراعيَّة، تتوسَّط التجمُّعات السكانيَّة والقرى لأفراد العشيرة الواحدة؛ ليكونوا العين الساهرة على حمايتها، وتتوَّقف مساحة القلعة وحجم عمارتها واستحكاماتها وفقًا لثراء شيخ العشيرة، ومساحة أراضيه الزراعيَّة، ومكانته السياسيَّة والاجتماعيَّة[1]

(١) للمزيد من التفصيل، ينظر: الشمَّريّ، أبراهيم سرحان، قلعة النصر في مدينة المسيَّب (دراسة ميدانيَّة)، المصدر السابق، ص٢٠٨٥.

المبحث الثاني

الوصف العام

القلعة كبيرة الحجم، تتكوَّن من قسمَين، ولها امتدادات واسعة، ويحيط بها جدار مبني من الآجر والجصِّ، أُضيف في أوقات لاحقة لبنائها (اللوح١)، والقلعة مبنيَّة بالآجر والجصِّ، أبعاد الآجرة (٢٤×٩×١٠سم)، وجميع سقوفها بُنيت بالروافد الحديديَّة (الشيلمان)، ومن طابق واحد، باستثناء البرج الرئيس في القسم المربَّع يتكوَّن من طابقَين، ويبدو أنَّ عمارة القلعة العامَّة تمزج بين أسلوبَين في البناء، وهما: المحلِّي والرسميّ، فقد نجد بعض اللمسات المعماريَّة الرسميَّة، وفي بعض الأحيان نجد الظهور المحلِّيّ في الكثير من العناصر العماريَّة، ومن هذا التناقض الذي وجدناه قلنا إنَّها تمزج بين أسلوبَين.

التخطيط والعمارة

القلعة مربعة الشكل تتكون من قسمين كبيرين يبعد الواحد عن الاخر (٢٣مترًا)، (اللوح٢).

أوَّلًا: القسم المربَّع

هو القسم الرئيس في القلعة، وعماد هيكلها التحصينيّ والدفاعيّ، حيث استخدم المعمار جميع الاحتياطات الدفاعيَّة، وكثَّف من ظهور عناصر العمارة العسكريَّة في هذا

القسم، وهو يتكوَّن من أربعة أسوار متينة ومحصَّنة (المخطط ١)، ارتفاعتها تتراوح من (٩-١٠ متر)، ويبلغ طول كلٍّ من السورَيين الشماليّ والجنوبيّ (٣٤م)، وطول السورَين الشرقيّ والغربيّ (٣٣م)، وسمكهما يتراوح بين (٥٠-٦٠ سم)، إذ يكون مجموع المساحة الكليَّة المبنيَّة لهذا القسم (١١٢٢ م٢)، وقد زُوِّد السور الشمالي بثمانية عشر مزغلًا مستطيلًا، أبعاد الواحد منها (٣٠×٢٠ سم)، (اللوح٣)، على حين زُوِّد الجنوبيّ بسبعة عشر مزغلًا مستطيلًا أبعاده (٣٢×٢١ سم)، (اللوح٤)، والسور الشرقيّ الذي يحتوي على اثني عشر مزغلًا بالقياسات والأبعاد نفسها الموجودة في السورَين الشماليّ والجنوبيّ، وكذلك السور الغربيّ يحتوي على خمسة مزاغل بالقياسات والأبعاد نفسها، علمًا أنَّ الجزء العلويّ من هذا السور متهدِّم، والمتبقي من مزاعله خمس فقط، ونرجِّح أن يكون العدد الأصليّ متناظرًا ومتماثلًا مع عدد مزاغل السور الشرقيّ، ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ جميع مزاغل هذا القسم متباينة المسافة، بمعنى آخر، أنَّ المسافة بين مزغل وآخر متفاوتة.

المداخل الخارجيَّة:

زوِّد هذا القسم من القلعة بمدخَلَين خارجيَّين:

المدخل الأوَّل: يقع في الزاوية الجنوبيَّة الشرقيَّة، أبعاده (٦٠ , ١×١٠ , ٢م)، يشغله باب معمول من الحديد حديث الصنع (اللوح٥)، يعلوه عقد مستقيم معمول بطريقة التلاعب بصف الآجر، ويوجد فوقه إطار مربَّع طول ضلعه (٩٣ سم)، أيضًا معمول من التلاعب بقصِّ الآجر، بداخله شكل هندسيّ معينيّ، له جوانب متدرِّجة معمول من قصِّ الآجر بوضعيَّات مرتَّبة وجميلة، ويعلوه عقد كتفي معمول من مقطَعَين (كتفَين) من كلِّ جهة (اللوح٥)، ويوجد أمامه جدار مبنيّ بالآجر والجصِّ يختلف عن الآجر المستخدم في بناء أجزاء القلعة الأخرى، وعلى ما يبدو أنَّه مضاف في أوقات لاحقة، بمعنى أنَّه ليس

من أصل البناء، مهمَّته جعل المدخل من نوع المداخل المنكسرة (الباشورة) التي تؤدِّي وظيفة عسكريَّة ودفاعيَّة صِرفة، أبعاد هذا الجدار (٢×٦٠ , ٢×٦٠ , ٣م) (اللوح٦)، وأغلب الظنِّ أنَّ هذا المدخل هو المدخل الرئيس في القلعة، وذلك لعدَّة أسباب، أهمّها وجوده بالقرب من برج الحراسة؛ لكي يكون أمام أنظار الحرَّاس، ويسهل الدفاع عنه في حالة تعرُّضه للهجوم والحصار، وكذلك لأنَّه خارجيّ بشكلٍ تامٍّ، أي لن يستطيع الداخل منه أن يطَّلع على المباني السكنيَّة الخاصة بالعوائل في القسم المستطيل من القلعة، الذي سنتحدَّث عنه بعد الانتهاء من القسم المربَّع.

المدخل الثاني: يقع في الزاوية الشماليَّة الغربيَّة، أبعاده وقياساته هي نفسها الموجودة في المدخل الأوَّل، يشغله باب معمول من الخشب، ومغلَّف بصفائح من الحديد؛ لغرض تقويته، ويعلوه عقد مستقيم معمول من صفٍّ من الآجر بوضعيَّة عمودية، وهذا المدخل يؤدِّي بشكل مباشر إلى القسم الثاني من القلعة، ممَّا يجعلنا نظنُّ بأنَّه مدخل ثانويّ، على العكس من المدخل الأوَّل.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ المعمار صمَّم هذه المداخل بطريقة جميلة جدًّا، وجعلها تتواءم مع مهمَّتها الدفاعيَّة والاجتماعيَّة، وحتى الاقتصاديَّة، إذ جعلها على شكل خطٍّ مائل (مدخَلَين ركنيَّين)، نصف المسافة بينهما تكون في وسط القلعة ومركز المبنى، إذ تسمَّى هذه الخاصيَّة في العمارة العربيَّة الاسلامية بالخاصيَّة الوتريَّة[1]، التي من شأنها السيطرة على جميع المفاصل والوحدات المعماريَّة في القلعة.

البرج: زُوِّد القسم المربع من القلعة ببرج واحد فقط، يقع في الركن الجنوبيّ الشرقيّ، ويعدُّ العنصر المعماريّ الوحيد المبني من طابقَين، وهو الجزء الدفاعيّ والحربيّ الأهم في

(١) للمزيد من التفصيل عن الفوائد العسكريَّة والدفاعيَّة والاقتصاديَّة لهذه الخاصيَّة، ينظر: الميَّالي، رجوان فيصل، العمائر العسكريَّة، المصدر السابق، ص١٠٩.

القلعة بمعيَّة المزاغل التي تتوزَّع بأعلى الأسوار(١).

يتألَّف البرج من شكلَين هندسيَّين، مستطيل ونصف دائرة، أو كما يسمَّى بالمصطلح الهندسيّ (مستطيل دائريّ)، ومن الجدير بالملاحظة هنا أنَّ المعمار استطاع الجمع بين الخطِّ المستقيم والمنحني، وربطهما بطريقة منسَّقة في نقطة ربط مركزيَّة، حقَّق بها اتِّساقًا عاليًا بينهما(٢)، أبعاده (٥×٥٠ ,٦×٢م)، ويبلغ ارتفاعه عشرة أمتار، ومحيطه الخارجيّ تسعة أمتار، ويبرز البرج إلى الأمام عن سمت السور الجنوبيّ مسافة ثلاثة أمتار ونصف المتر، استخدمها المعمار لأغراض دفاعيَّة ومعماريَّة، سنأتي على ذِكرها بالتفصيل.

البرج من الخارج: مقسَّم على قسمين، يفصل بينهم شريط عرضه (٢٥سم)، معمول من الآجر المقصوص، يدور حول بدن البرج بشكل كامل (اللوح٧).

القسم الأسفل: وبالعودة للواجهة الخارجيَّة من القسم الأسفل في البرج، نجدها تحتوي على صفَّين من الفتحات المربَّعة، ذات الحجم الصغير والضيِّق، عددها اثنتا عشرة فتحة، يؤطِّرها من جميع جهاتها شكل هندسيّ معينيّ، أبدع المعمار في قصِّ آجرِّه وتشذيبه وتصفيفه، المسافة بين الصفِّ والآخر (٦٨ ,١م)، والمسافة بين فتحة وأخرى متساوية ومحدَّدة، بُنيت بشكلٍ دقيقٍ ومتناسب، إذ إنَّ الفتحة في الصفِّ الأسفل متناظرة تمامًا،

(١) بالغ المعمار في عمارة الأبراج مبالغة كبيرة في الدفاعات والاستحكام، وبالوقت نفسه عمل على اتِّساع المجال من داخل البرج؛ ليحقِّق الاتِّصال عن طريق ممرَّات أو سلالم مغطَّاة، ولأيواء أعداد كبيرة من الجند والمقاتلين. للمزيد من التفصيل، ينظر: بيج، بيرتون، البرج في العمارة الإسلاميَّة الحربيَّة، ص٢٣.

(٢) للمزيد من التفصيل عن ظاهرة دمج الخطِّ المستقيم مع المنحني، ينظر: الجادرجي، رفعة، دور المعمار في حضارة الإنسان، ص٧٠٦.

وعلى نفس الخطِّ والاستقامة مع الفتحة في الصفِّ الأعلى، وهذا التناسب في العمارة الإسلاميَّة له دلالاته ومعانيه، منها إظهار التفاصيل المعماريَّة بأحسن وجهة، وأفضل تناظر متناسق(١).

القسم الأعلى: يحتوي على أربعة صفوف من الفتحات، الصف الأوَّل عبارة عن مزاغل عددها اثني عشر مزغلًا مستطيلة الشكل، أبعاده (٣٠×١٥ سم)، فُتِحت بطريقة رأسيَّة متَّجهة للأسفل، لتؤدِّي وظيفتها الدفاعيَّة بشكلٍ صحيحٍ واحترافيّ، ولاستخدامها بوظيفة المساقط والمزاغل في آنٍ واحد، وهنا أتقن المعمار فنَّ العمارة الدفاعيَّة والحربيَّة، إذ استطاع أن يجمع وظيفَتَين عسكريَّتَين في فتحة واحدة(٢). أمَّا الصف الثاني، فهو عبارة عن فتحات مربَّعة الشكل، صغيرة الحجم، مفتوحة بنفس المستوى والاستقامة الخاصَّة بالصفِّ الأوَّل (صفّ المزاغل)، وفتحات الصفِّ الثاني عددها (تسعة)، استخداماتها متعدِّدة، منها تصريف مياه الأمطار، والمراقبة فقط، وتُستخدم أيضًا كزخرف جماليّ في البناء، ويوجد في هذا القسم من البرج زخرفة آجريَّة هندسيَّة معمولة من قصِّ الآجرِّ، عبارة عن (ثلاثة) أشكال معينيَّة اثنان منها صغيرا الحجم، وهما على الأطراف، أمَّا الشكل المعينيّ الذي يقع في الوسط، فهو أكبر حجمًا منها، علمًا أنَّ هذه الزخرفة تتوسَّط

(١) التناظر والتناسق هو الانسجام الحاصل من توزيعات، أو نسب منتظمة معيَّنة، أو وضع شكلَين متماثلَين، بحيث تكون كلُّ نقطتَين متماثلتَين على نفس البُعد لنقطة أو مستقيم أو مستوى، والعلاقة المتَّزنة بين كلِّ الأجزاء، وقد ورد التناظر في العمارة الإسلاميَّة بما يخدم الكتل والإنشاء والوظيفة. للمزيد من التفصيل عن التناسب والتناظر بالعمارة الإسلاميَّة وأهميَّته في إظهار الشكل بمظهر جميل، وبالوقت نفسه يُظهر مدى الخبرة وحرص المعمار المسلم على إتقان مهنته وتطويرها، ينظر: ثويني، عليّ، معجم عمارة الشعوب الإسلاميَّة، ص٢١٥، وينظر: الجادرجي، رفعة، في سببيَّة وجدليَّة العمارة، ص١٢٧-١٢٨.

(٢) للمزيد من التفصيل عن معرفة الفرق بين العمل الوظيفيّ للسقَّاطات والمزاغل في العمارة الحربيَّة والعسكريَّة، ينظر: غالب، عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلاميَّة، ص٢٢٦، ٢٣٣.

واجهة القسم الأعلى من البرج (اللوح٨)، ويعلو هذه الواجهة الزخرفيَّة صفًّا ثالثًا، وهو عبارة عن صف من المزاغل البالغ عددها (عشرة)، وهي بنفس القياسات والأبعاد والشكل بالنسبة إلى مزاغل الصف الأوَّل، وبالنسبة إلى الصفِّ الرابع، الذي يتكوَّن من اثنتي عشرة فتحة مربَّعة بنفس القياسات والمواصفات الموجودة في فتحات الصفِّ الثاني، وتنتهي قمَّة البرج بمجموعة من الشرفات الهرميَّة[1]، البالغ عددها خمس عشرة، وهي عناصر عماريَّة دفاعيَّة تسمح للمدافعين عن القلعة بالمراقبة والرصد الجيِّد، ودقَّة الإصابة دون أن يصاب الأشخاص المتواجدين خلفها. ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الضلع الخلفيّ للبرج يحتوي على مجموعة من المزاغل عددها (أربعة)، تطلُّ على الضلع الشرقيّ للقلعة؛ لحمايته ومراقبته، وهي بنفس المواصفات الخاصَّة بمزاغل البرج الأخرى التي مرَّ ذِكرها قبل قليل، وكذلك توجد فتحة مربَّعة الشكل، أبعادها (٨٠×٨٠سم) في أعلى البرج من الجهة المطلَّة على السطح (اللوح٤).

البرج من الداخل: للبرج مدخل مستطيل الشكل، أبعاده (٢٦ , ١×٩٠ , ١م)، يعلوه عقد مستقيم معمول من الآجر يؤدِّي إلى داخل البرج (اللوح٤)، ويتألَّف داخل البرج من ساحة صغيرة مستطيلة الشكل، أبعادها (٧×٤م)، يعلوها سقف معمول من الحديد والشيلمان، يغطِّي نصف مساحة البرج من الداخل تقريبًا (٢×٢م) (اللوح٩)، لغرض الجلوس عليه من قِبَل المدافعين عن القلعة، واستخدامها في الجانب الدفاعيّ؛

(١) تعدُّ الشرفات من العناصر العماريَّة ذات الطابع العسكريّ والحربيّ، تُبنى في أعلى قمم الأبراج والأسوار والقلاع والحصون، يُشرِف من خلالها الجند المدافعين، والشرفات على أنواع متعدِّدة، منها: الهرميَّة والمسنَّنة. للمزيد من التفصيل ينظر: الهاشميّ، نسيبة محمَّد، الشرفات ظهورها وتطوُّرها من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ص٥-٦، وينظر: الميَّالي، رجوان فيصل، القلاع في وسط وجنوب العراق عمارتها وتخطيطها خلال فترة الاحتلال العثمانيّ ٩٤١-١٣٣٦هـ/ ١٥٣٤-١٩١٧م، ص١٧١.

لأنَّها بمستوى ارتفاع واحد، مع فتحات المزاغل المطلَّة على الواجهة الخارجيَّة للبرج، وكذلك تحتوي جدران البرج من الداخل على أربع كوَّات غير نافذة مستطيلة الشكل، أبعاد اثنتين منها (٧٧×٩٥سم)، واثنان بقياس (٩٥×٦٠سم)، تستخدم لغرض وضع بعض الحاجيات، مثل أدوات الإنارة والإضاءة (اللوح١٠).

في نهايـة الحديث عن التفاصيل المعماريَّة، لا بدَّ هنا من ملاحظتَين هامَّتين، تتعلَّقان بالشـكل التخطيطـيّ للبرج، أقول: إنَّ النماذج التي تشـبه هذا البرج موضوع دراسـتنا قليلة[١]:

الملاحظـة الأولى: إنَّ المعمار اسـتطاع أن يجمع شـكلَين في آنٍ واحد، وهو الشـكل المسـتطيل ذو الواجهـة نصـف الدائريَّـة، كـما ذكرنـا ذلـك في ثنايـا البحـث[٢]، ومن نظـرة ميدانيَّـة تحليليَّة فاحصة لهذا الشـكل، نجد أنَّ المعـمار كان حاذقًـا ولبيبًا في تنفيذ خـواصِّ الـبرج التخطيطيَّـة والمعماريَّـة بجمعـه لعديد مـن المزايـا الدفاعيَّـة والحربيَّة والمناخيَّـة والبيئيَّـة والاقتصاديَّة والعسـكرية في عمله[٣]، إذ جعـل المعمار تخطيط البرج

(١) يتشـابه برج قلعة الخلفة مع أبراج قلعة بصية التي بُنيت في بادية السـماوة عام ١٩٢٨م. للمزيد من التفصيل، ينظر: الميَّالي، رجوان فيصل، العمائر العسكريَّة، المصدر السابق، ص٥٧.

(٢) من أكثر أشكال الأبراج كفاءة من الناحية الدفاعيَّة، هو الشكل الإسطوانيّ ونصف الدائريّ؛ لأنَّه يعطي مجالًا أوسـع للحركة والمناورة عند الدفاع، وأنَّ زاوية الرصد فيه أوسـع. للمزيد من التفصيل، ينظر: الشـمَّري، إبراهيم سرحان، البرج في العمارة العربيَّة الإسلاميَّة في العراق حتى نهاية العصر العبَّاسيّ، ص١٤٥.

(٣) إنَّ ضخامـة البرج بهذا الشـكل؛ لتحقيق الغرض الذي شـيِّدت من أجله، هـو تدعيم الناحية الدفاعيَّـة، حيث يشـتمل البرج في موضوع دراسـتنا على مسـتويات متعدِّدة مـن الدفاع، وهو أسـلوب معماريّ اسـتُعمل في قلاع دمشـق وحلب، واسـتمرَّت هذه الظاهرة الحربيَّة في القلاع المملوكيَّـة في مصر، كـما في قلعة قايتباي في الإسـكندريَّة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، وقلعة أتادوس في تركيـا عـام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، المعروفة (حصـار) أي (الحصون الرشـيقة)، وذلـك في برجها الشماليّ، وهذه المسـتويات الدفاعيَّة المتعدِّدة عبارة عن فتحات للمزاغل لإطلاق النيران منها.=

بهذه الكيفيَّة لجماليَّة الشكل والمحتوى، عندما قرَّر أن تكون الواجهة نصف دائريَّة، لما تحمله هذه الفكرة من خصائص مميَّزة ورائعة، منها أنَّها كلَّما ارتفع بناء الشكل نصف الدائريّ للأعلى، استطاع أن يشتِّت قوَّة الرياح التي تصطدم به، وأن لا يكون البناء معرَّضًا للانهيار، كما يحصل في بقيَّة الأشكال المربَّعة والمستطيلة، التي تتأثَّر بالجانب المناخيّ والبيئيّ، وخصوصًا عامل الرياح، وهنا عالج المعمار الجانب المناخيّ والبيئيّ[1]، عندما جعل البرج ذا واجهة نصف دائريَّة من الأمام متكوِّنة من طابقَين، وجعلها من أكثر الأجزاء أرتفاعًا بالقلعة، دون أن تنال منها الرياح، لكي يؤدِّي البرج وظائفه الأخرى، وكذلك الجانب الاقتصاديّ والكلفة الماليَّة، بتقليل استخدام مواد البناء بالأشكال الدائريَّة أو نصف الدائريَّة مقارنةً بالأشكال الأخرى المربَّعة والمستطيلة وغيرها[2]، وأيضًا نجح المعمار في اختياره هذا الشكل، أي نصف الدائريّ؛ لأنَّه حقَّق الغرض الأهم، وهو الغرض العسكريّ، وكما هو معروف أنَّ الأشكال الدائريَّة هي أكثر فاعليَّة من الأشكال الأخرى، مثل المربَّعة والمستطيلة، في الدفاع عن المكان المراد حمايته[3].

=للمزيد من التفصيل، ينظر: قلعجي، عبد الفتَّاح رواس، حلب القديمة والحديثة أسماؤها وحكَّامها وأحداثها، أبوابها وأسواقها وأحياؤها، ص٢٧٣-٢٧٥، وينظر: الجهينيّ، محمَّد، العمارة الحربيَّة في الجزيرة العربيَّة، ص٣٥.

(١) للمزيد من التفصيل عن دور المعمار في المعالجات المناخيَّة والبيئيَّة في العمارة الإسلاميَّة، ينظر: وزيري، يحيى، العمارة الإسلاميَّة والبيئة، العدد٣٠٤، ص١٨٦.

(٢) للمزيد من التفصيل عن موضوع الاقتصاد في الكلفة البنائيَّة، ينظر: محمَّد، غازي رجب، التحصينات الدفاعيَّة في مدينة بغداد المدوَّرة، ج٣، ص٣٣٤.

(٣) للمزيد من التفصيل عن مهامِّ أشكال الأبراج الدائريَّة، سواء كانت مسلوبة البدن أم لا، ونجاحها في تأدية الواجب الدفاعي والمناخي بتبريد البرج من الداخل، ينظر: وزيري، يحيى، جماليَّات المفردات المعماريَّة في المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، سلطنة عمان أنموذجًا، ص١١٣.

الملاحظة الثانية: هي تقدُّم البرج عن سمت الجدار الجنوبيّ للقلعة مسافة (٤٥ , ٣م)، فضلًا عن ذلك نجد أنَّ شكل البرج يطغى على جميع أجزاء القلعة، وهو البناء الأفخم والأكبر والأمتن في جميع تفاصيله، وهنا حقَّق المعمار هدفَين، الأوَّل: بأن جعل البرج متقدِّمًا على سمت الجدار؛ لأغراض السيطرة والتحكُّم ببقيَّة أجزاء القلعة، بكبر حجمه ومتانته، وأن يجعل البرج آخر معقل من معاقل القلعة يسقط بيد المهاجمين والاعداء، الثاني: هو أن يجعل البرج من أكثر الأجزاء صرحيَّة وضخامة، ممَّا يجبر المشاهد على الشدِّ والانتباه وأدخال الرهبة في النفس والقلب، وهذا أيضًا أسلوب معماريّ يسمَّى البشتاك[1]، ظهر في الكثير من العمائر والأبنية الإسلاميَّة، وبهذا يكون البرج عبارة عن مجموعة بنائيَّة متكاملة، حقَّق بها المعمار جميع متطلَّباته العسكريَّة والدفاعيَّة والبيئيَّة والمناخيَّة والاقتصاديَّة من حيث الشكل والمضمون.

الوحدات المعماريَّة: تتوزَّع الوحدات المعمارية في هذه القلعة على أربع جهات، بُنيت جميعها بالآجر والجصّ، وبارتفاع متساوي (٥٥٠ , ٤م).

الجناح الشماليّ والجنوبيّ: يتألَّف كلُّ واحدٍ منهما من ثلاث حجرات مستطيلة الشكل، قياس الواحدة (٥×٧م)، وقد فتح المعمار في واجهة كلِّ حجرة مدخلًا مستطيل الشكل، أبعاده (١×٧٠ , ٢م)، ويشغله باب معمول من الخشب من مصراعَين، كلُّ مصراع مقسَّم على ثلاثة أقسام مستطيلة، صغيرة الحجم، خالية من الزخرفة، ويعلو الباب كتيبة خشبيَّة متكوِّنة من أربعة مربَّعات صغيرة الحجم، تتخلَّلها مجموعة من القضبان الحديديَّة، يعلوها عقد مستقيم معمول من التلاعب بوضعيَّة تصفيف الآجر، باستثناء الحجرة الوسطانيَّة، فبابها لا يحتوي على كتيبة، فيكون مختلفًا عن أبواب الحجرتَين

(١) البشتاك مصطلح معماريّ يرد في العمارة الهنديَّة، يصف أنواع المداخل صرحيَّة الهيئة، ويكون موقعها في قلب البناء، وعلى محوره الرئيس. ينظر: ثويني، عليّ، معجم عمارة الشعوب الإسلاميَّة، المصدر السابق، ص١٤٨.

الجانبيَّتَين من كِلَا الجناحَين الشمالي والجنوبي، إذ تكون أبعاد الباب (١×٣م)، وفتح المعمار أيضًا في واجهة كلِّ حجرة نافذة مستطيلة الشكل أبعادها (٩٠سم×١٠ , ٢م)، شُغِلت بشبَّاك معمول من الخشب والقضبان الحديديَّة، وتتقدَّم هذَين الجناحَين طرمة بمسافة ثلاثة أمتار لكلِّ جناح، ترتكز هذه الطوارم على أعمدة أسطوانيَّة الشكل رشيقة، معمولة من مادَّة الإسمنت والحصى، ارتفاع الواحد (٣٥٠ , ٤م)، عددها اثنان، المسافة بين الواحدة والأخرى خمسة أمتار. استطاع المعمار هنا الاستغناء عن التيجان التي تعلو الأعمدة لتحمل السقف، حيث استخدم الحديد الشيلمان، ووضعه بطريقة أفقيَّة تصل بين الأعمدة، وهذا جرَّاء دخول مواد بناء حديثة في بداية القرن العشرين (اللوح١١).

الجناح الشرقيّ: يحتوي هذا الجناح على ثلاث حجرات بالقياسات والأبعاد نفسها التي وجِدت في الجناحَين الشماليّ والجنوبيّ، وكذلك بالنسبة إلى أعداد المداخل والنوافذ وقياس كلِّ واحدة منها، إلَّا أنَّ هذا الجناح يختلف عن سابقَيه بأنَّ الطرمة التي تتقدَّمه ترتكز على ثلاثة أعمدة أسطوانية، لا اثنَين، بالقياسات والأبعاد نفسها الموجودة في سابقتها (اللوح١٢).

الجناح الغربيّ: زوِّد هذا الجناح بثلاث حجرات بالقياسات والأبعاد نفسها التي وجِدت في الجناح الشرقيّ، وكذلك بالنسبة إلى أعداد المداخل والنوافذ، وقياس كلِّ واحدة منها، إلَّا أنَّ هذا الجناح يختلف عن الجناح الشرقيّ والشماليّ والجنوبيّ بعدم احتوائه على طرمة تتقدَّمه، وكذلك بعض الاختلافات الطفيفة التي تتعلَّق بشكل الباب الوسطانيّ الذي تعلوه كتيبة.

الصحن: تنفتح وتطلُّ جميع الوحدات المعماريَّة في هذا القسم من القلعة على صحن وسطي مربَّع الشكل، قياساته (٣٣×٣٤م)، بُلِّطت أرضيَّته بالفرشيّ المربَّع ذي

القياسات (٢٥×٢٥سم)، وتنتشر في داخل الصحن الكثير من الحشائش والنباتات؛ نتيجة عدم الاستطيان والسكن بداخل البناء، وأهماله، ممَّا أدَّى إلى عدم العثور على آثار لبئر، أو مكان لتصريف المياه (اللوح١١).

السلالم والسطح: زوِّد هذا القسم من القلعة بسلَّمَين، **الأوَّل**: يقع في أحد أطراف الجناح الغربيّ، يتمُّ الوصول إليه عن طريق ممر ضيِّق ومظلم، مستطيل الشكل، أبعاده (٢٠,٦×٤م)، يتمُّ الصعود به إلى سطح المبنى عن طريق غرفة مربَّعة الشكل، أبعادها (٤×٤م)، لها مدخل مستطيل الشكل، أبعاده (١×٢م)، ينفتح بشكل مباشر على السطح.

الثاني: يقع هذا السلَّم في أحد أطراف الجناح الشرقيّ، بشكل متقابل ومتناظر مع السلَّم الأوَّل وبنفس الشكل والطريقة والتصميم، بلِّطت أرضيَّة السطح بالفرشيّ المربَّع الشكل، بقياس (٢٥×٢٥سم)، علمًا أنَّ قياس السطح من جهَتَي الشمال والجنوب تسعة أمتار، تبدأ من حدود السور الخارجيّ إلى أن تصل إلى نهاية الطرمة مع بداية الصحن، ومن الجهة الشرقيَّة ثمانية أمتار، ومن الجهة الغربيَّة ستَّة أمتار بالحدود والأبعاد نفسها الموجودة بجهَتَي الشمال والجنوب.

وللسطح ستارة خارجيَّة تطلُّ على المنطقة المحيطة بالمبنى من أربع جهات، يبلغ ارتفاعها (٣٠,١م) مزوَّدة بعدد لابأس به من الدعامات مستطيلة الشكل؛ لتدعيم الستارة وتحصينها، وجعلها تتحمَّل عوامل البيئة والمناخ، فضلًا عن الجانب الدفاعيّ والعسكريّ، وتطلُّ الستارة الأخرى الموجودة في السطح على الصحن، وهي عبارة عن ستارة داخليَّة، لم يُعِرها المعمار اهتمامًا من الناحية الدفاعيَّة والعسكريَّة، إذ جعلها عبارة عن جدار صغير ارتفاعه (٨٥ سم)، معمول من الآجر المقصوص بأشكال زخرفيَّة مختلفة، ولم يكن متينًا، يتمُّ بها النظر والسيطرة على صحن القلعة الداخليّ. وعلى ما

يبدو من هذه التفاصيل الخاصَّة بعمارة هذا القسم، بأنَّه استُخدِم لغرَضَين رئيسَين، وهما غرض عسكريّ، واستخدام خدميّ متنوِّع، مثل حجرات للضيوف، وللخزن، والاستحمام، وغيرها من الاستخدامات الأخرى الخاصَّة بالضيوف.

ثانيًا: القسم المستطيل

الوصف العام: بُني هذا القسم من الآجر والجصّ بالقياسات والأبعاد نفسها الموجودة في القسم المربَّع، والمبنى مستطيل الشكل غير منتظم الأضلاع، إذ يتَّضح بأنَّ أضلاعه على غير أستقامة، يشكِّل الضلع الشرقيّ أكثرها استقامة، إذ يبلغ طوله الكلِّي (١٧م)، على حين يتكوَّن الضلع الغربيّ من مقطعَين، الأوَّل: مستقيم، طوله (٨م)، والثاني: على شكل نصف دائرة، قطرها (٨م)، وبهذا يكون طوله الكلِّيّ (١٦م)، على حين أنَّ الضلع الشمالي أكثرها تعقيدًا، له مقطع طوله (٨م)، ثمَّ دخلة منكسرة (٤م)، ثمَّ مقطع آخر من الضلع نفسه طوله (٨م)، وبهذا يكون طوله الكلِّيّ (٢٠م)، أمَّا الضلع الجنوبيّ فيتكوَّن من مقطع واحد فقط، طوله (١٢م)، (اللوح١٣).

وعلى ما يبدو، فإنَّ هذا القسم من البناء استُخدم بشكل كامل للسكن العائليّ، وعلى الرغم من وظيفتَّه الاساسيَّة التي خُصِّصت بالدرجة الأولى للعمارة الخدميَّة والعائليَّة، زوَّد المعمار الستارة العليا لهذا البناء بعدد من المزاغل التي تؤدِّي وظيفة عسكريَّة وحربيَّة، ولهذا القسم من البناء مدخَلَين: المدخل الرئيس فُتِح في الضلع الغربيّ، أبعاده (٢٠ , ١×٧٠ , ٢م)، وهو معمول من الخشب على مصراعَين (اللوح١٤)، وفُتِح بالقرب منه نافذة مستطيلة الشكل يشغلها شبَّاك معمول من قضبان الحديد والخشب، أبعاده (١٠ , ١×٤٥ , ١م)، ويعلو هذا الشبَّاك لوحة فنيَّة جميلة (اللوح١٥)، تتكوَّن من الألوان المائيَّة، قوامها منظر يمثِّل أشجار ونباتات وبيوت وجسور وقناطر، مع وجود

نهر يتوسَّـط المشـهد، وقد حاول الفنَّان أن يضع لكلِّ عنصر من عناصر هذا المشهد لونًا يناسـبه، عـلى الرغم من أنَّه لم يحاكِ الألـوان الطبيعيَّة للعناصر النباتيَّـة التي طغى عليها اللـون الأصفـر، وربَّـما كان الفنَّان يريـد أن يصوِّر لنا موسـم الخريـف، عندما تكون النباتات والاشـجار باللون أصفر، وعلى أي حال، لا بدَّ من القول إنَّ الفنان في مشهده هذا حاول أن ينقل الواقع البيئيّ والنباتيّ الموجود في منطقة القلعة؛ لأنَّها منطقة زراعيَّة، تكثر فيها النباتات والأشـجار والأنهـار والجداول. أمَّا وجود هذا المشـهد في الواجهة الرئيسة للبناء، فهو دالٌّ على أنَّه مكان مهم ومركزي، كاستخدامه لجلوس العائلة لقضاء أوقات الفراغ، وخصوصًا أنَّ أمامه حديقة جميلة تحقِّق الغرض الجماليّ والترفيهيّ، فضلًا عـن ذلك، تتقدَّم هذه الواجهة طرمة (رواق) بمسـافة ثلاثة أمتـار ترتكز على عدد من الأعمدة الأسـطوانية الشـكل، ممَّا يعطي البناء جماليَّة أضافيَّة، لاسـيما أنَّ هذه الجهة من البناء تحتوي على بناء نصف دائريّ، أمَّا المدخل الثاني، فيوجد في منتصف الضلع الشماليّ، أبعاده (١٥ , ١×٨٠ , ٢م)، يتكوَّن من مصراعَين، كلُّ مصراع مقسَّـم على مسـتطيلات صغيرة الحجم، عددها سـتَّة فقط، وتتكوَّن الكتيبة التي تعلو مصاريع الباب من قضبان حديديَّة وخشـبيَّة تزيد من جماليَّة الباب التي يعلوها عقد مستقيم معمول من التلاعب بوضعيَّـة الآجر (اللوح١٦)، وتؤدِّي هـذه المداخل إلى ممرَّات وموزع يطل على مجموعة مـن الحجرات المتلاصقة والمتقابلة مع بعضها، تكون في العادة ذات مسـاحات مداخل متشابهة، تُستخدم بعدَّة وظائف ومهام أخرى.

النتائج

بعد نهاية البحث، نصل إلى مجموعة من النتائج التي من شـأنها أن تزيد من إيضاح بعض المبهمات بخصوص أسلوب بناء القلعة موضوع البحث:

١. إنَّ منطقـة الدراسـة مدار البحث من الأماكن المهمَّة في العـراق، إذ إنَّها تتمتَّع بموقع إستراتيجيّ مهم، واستوطنتها الكثير من العشائر العراقيَّة الأصيلة، ممَّا جعلها منطقة ساخنة بالأحداث السياسيَّة والعسكريَّة.

٢. يتميَّـز بناء القلعة بأنَّه يتكوَّن من قسـمَين، الأوَّل قسـم يسـمَّى السـلاملك، والثاني الحرملك، وهذا من الصفات التخطيطيَّة للعمارة الإسلاميَّة التقليديَّة، التـي تراعي الجوانب الاجتماعيَّة والدينيَّة السـائدة في المجتمعات الإسـلاميَّة المحافظة.

٣. تبيَّن من البحث أنَّ الكثير من القلاع تنتشر في منطقة الدراسة، وجميعها تتَّصف بمزايا حربيَّة ودفاعيَّة.

٤. تتَّصـف قلعة الخلفـة موضوع البحث بصفات معماريَّة فريـدة من نوعها، من حيث التخطيط والعمارة، وتناسـب الأجزاء، وتناظـر العناصر المعماريَّة، مثل المداخـل والحجـرات، ويلحظ على بناء القلعة بشـكل عام بأنَّـه لم تمتدّ إليه يد التجديد والتعمير، ولكنَّها بقيت تحتفظ ببنائها الأصليّ.

٥. خلـو جدران البناء من أيِّ نصٍّ تذكاريّ أو نقشٍ كتابيّ يوثِّق تاريخ بناء القلعة

أو ترميمها، على الرغم من وجود قلاع بالقرب منها، نُقش على واجهتها تاريخ البناء، مثل قلعة النصر في مدينة المسيَّب.

٦. من البحث تبيَّن أنَّ عمارة القلعة من العمائر الهجينة التي تمتزج بها العمارة الرسميَّة والعمارة المحليَّة؛ لتخرج لنا بعمارة هجينة تجمع بين المزايا المعماريَّة التي تشتهر بها العمارة الإسلاميَّة التقليديَّة، مثل الأبراج والمزاغل وبقيَّة العناصر الأخرى، وبين المزايا المعمارية التي دخلت لنا مع العمارة الرسميَّة أبان سنوات الاحتلال البريطانيّ في العقدَين الأوَّل والثاني من القرن العشرين، مثل الأعمدة الأسطوانيَّة المندمجة، والمعمولة من مادَّة الإسمنت الحديثة، والحديد الشيلمان (الروافد الحديديَّة)، وحجم الآجر المستخدم في البناء.

٧. توصَّل الباحث إلى أنَّ المعمار بالغ باستخدام العناصر المعماريَّة ذات الصفة الحربيَّة والدفاعيَّة، وحسن التعامل بتوظيفها توظيفًا مميَّزًا، مثل عدد المزاغل البالغ (٦٤)، وكذلك الأمر بالنسبة للبرج الوحيد الموجود بالقلعة كان السد المنيع، والمدافع الأهم عن القلعة.

٨. توصَّل الباحث إلى أنَّ المعمار لم يغب عن فكره موضوع زيادة عدد الميازيب التي تستخدم في تصريف مياه الأمطار، على الرغم من قلَّتها في العراق، ولاسيما في أقسامه الوسطى والجنوبيَّة، إلَّا أنَّ هذه واحدة من ظواهر العمارة الرسميَّة (عمارة المستعمرات)، التي جاءت من الهند مع دخول الجيش البريطانيّ للعراق، علمًا أنَّ هذا يتلاءم مع مناخ الهند الذي يتميَّز بكثرة أمطاره.

٩. تميَّزت عمارة هذه القلعة بأسلوب التخطيط (الوتريّ)، وهو أسلوب شاع في عمارة القرن العشرين، مقتضاه السيطرة على البناء بشكل خطٍّ مائل يربط طرَفَي البناء؛ لأغراض دفاعيَّة وحربيَّة.

١٠. تبيَّن من البحث والدراسة قلَّة استخدام الزخارف الفنيَّة على البناء، باستثناء بعض اللقطات التي نفذِّت على واجهة البرج وواجهة القسم المستطيل، وهذا ناتج من الوظيفة الرئيسة للبناء، التي هي وظيفة عماريَّة عسكريَّة، لا تمتُّ إلى الفنون بصلة قويَّة.

المخططات والأشكال والألواح

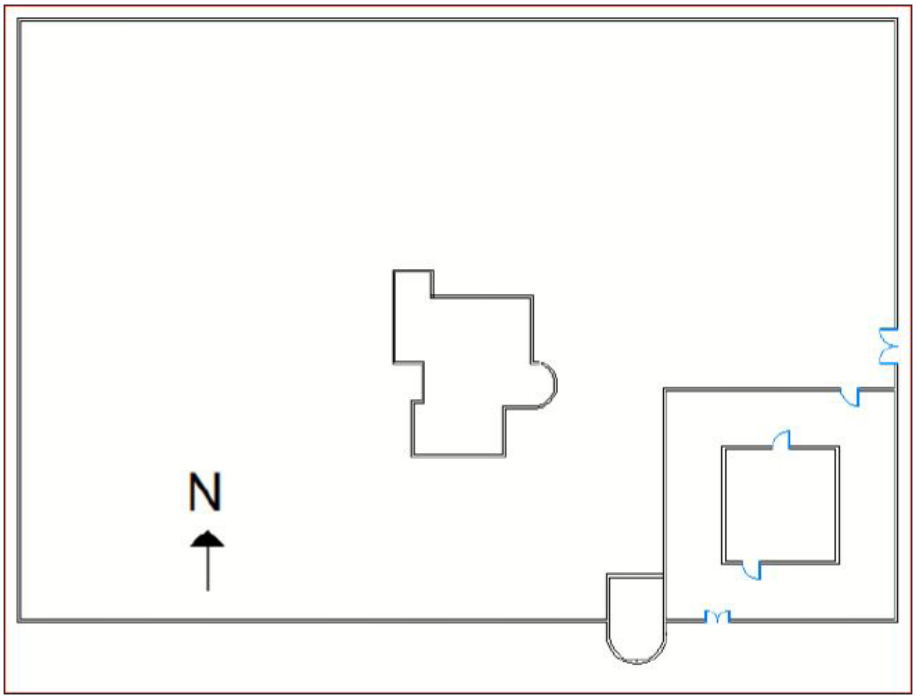

(مخطَّط ١)

مخطَّط عام يمثِّل قلعة الخلفة

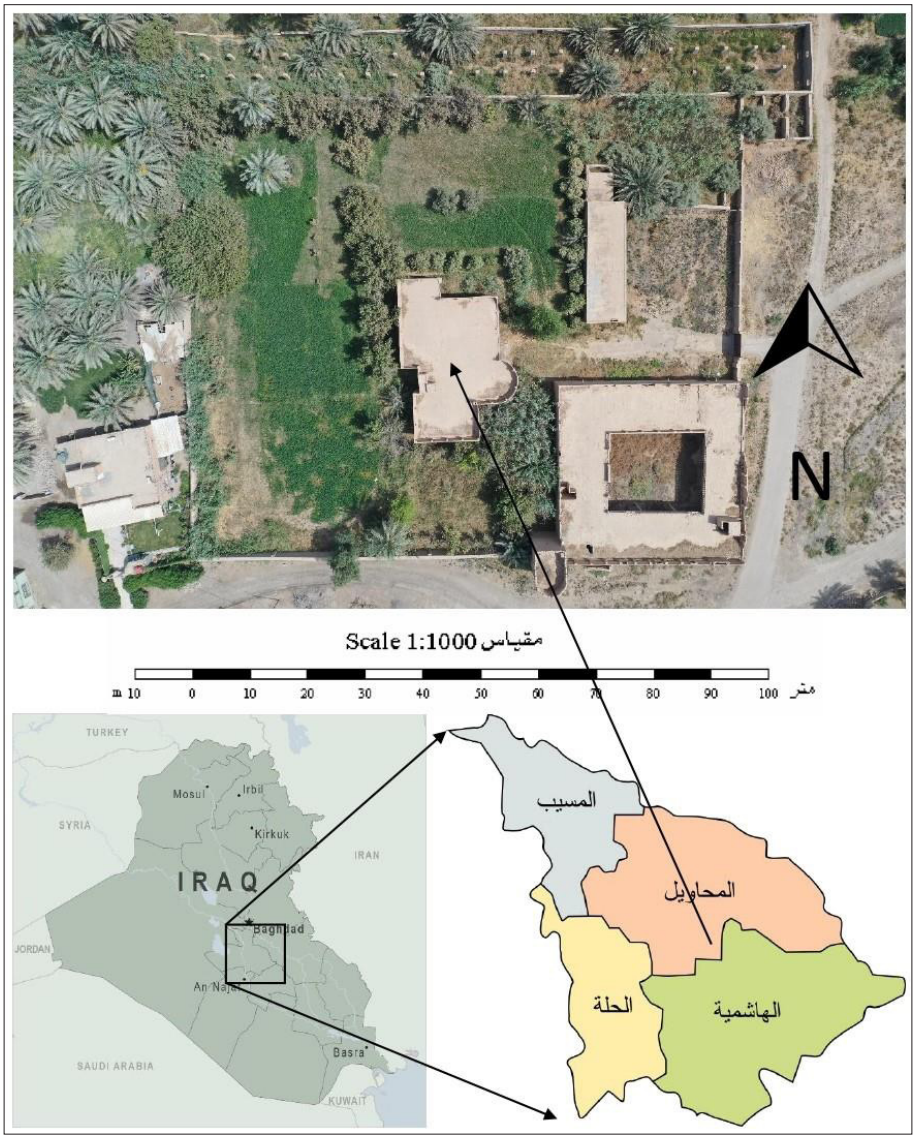

(الشكل١)

شكل يبيِّن موقع القلعة في محافظة بابل والعراق

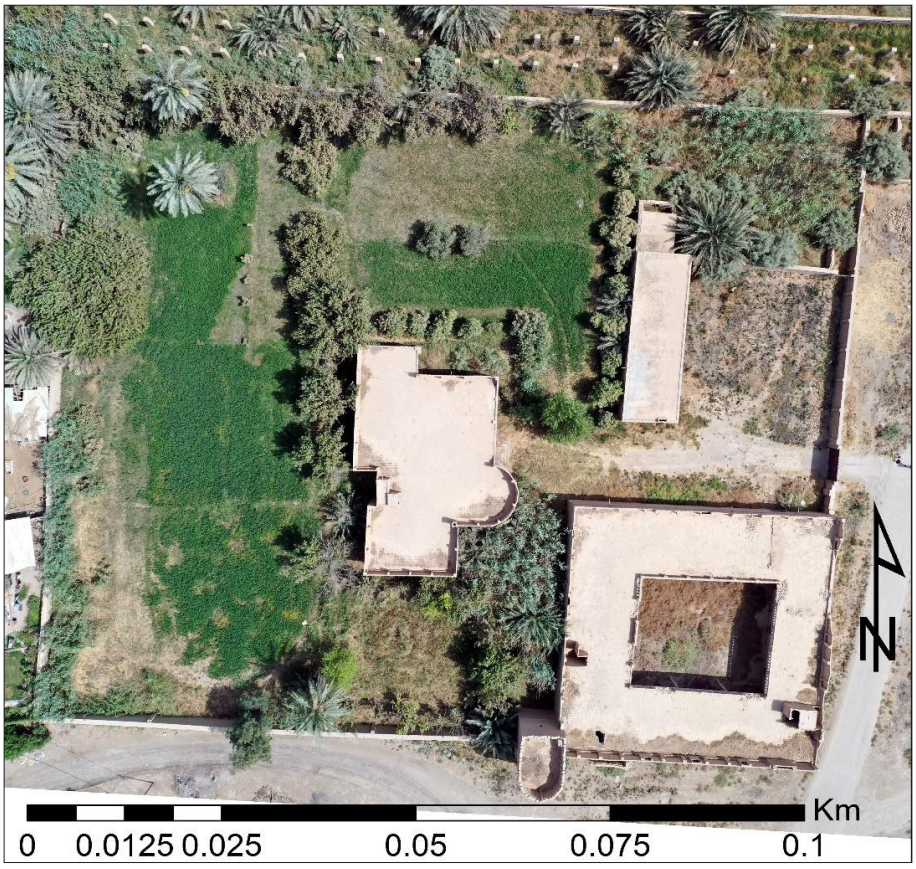

(اللوح١)

منظر عام لقلعة الخلفة

(اللوح٢)

صورة جويَّة عامَّة لقلعة الخلفة

(اللوح٣)

مزاغل السور الشماليّ في قلعة الخلفة

(اللوح٤)

مزاغل السور الجنوبيّ والبرج الرئيس في قلعة الخلفة

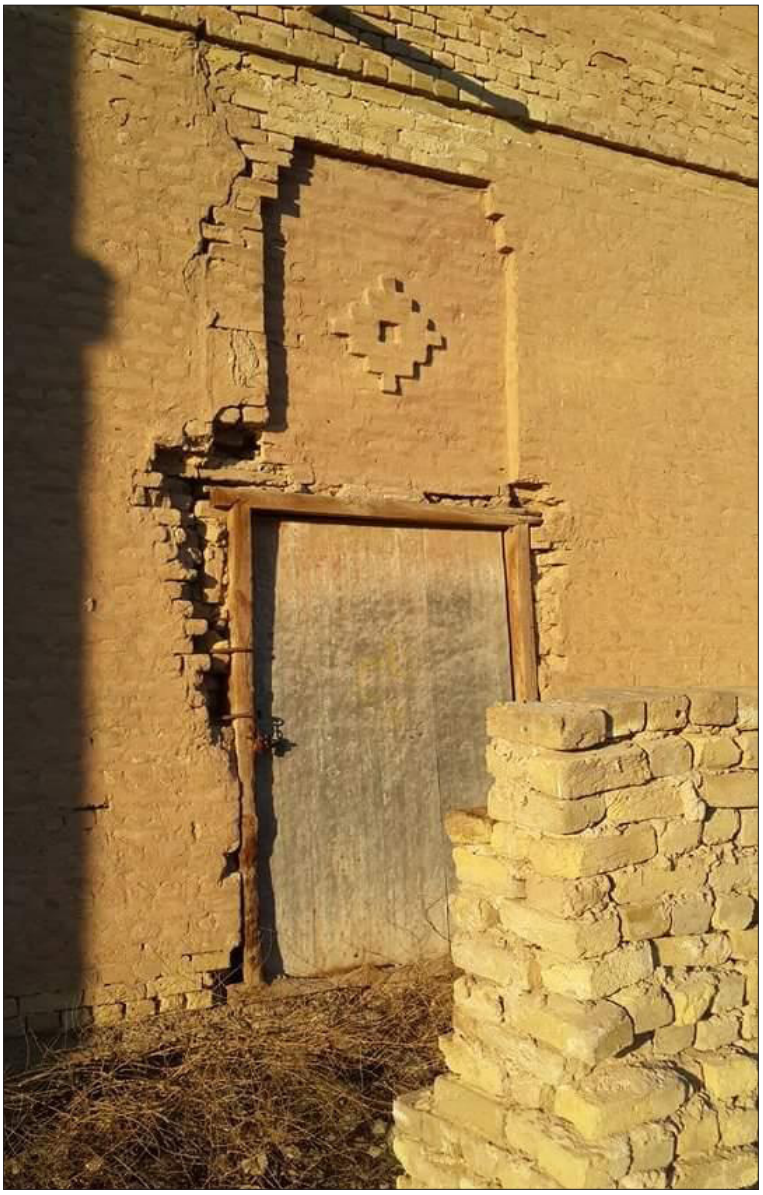

(اللوح٥)

المدخل الخارجي من جهة الجنوب

(اللوح٦)

المدخل المنكسر في القلعة

(اللوح٧)

الشريط الآجريّ الذي يقسِّم برج القلعة قسمَين

(اللوح٨)

زخرفة أجريَّة معينيَّة الشكل من ثلاثة أجزاء

(اللوح٩)

المزاغل من داخل البرج مع طريقة التسقيف بالشيلمان

(اللوح١٠)

كوَّات غير نافِذة داخل برج القلعة

(اللوح١١)

الأعمدة الإسطوانيَّة التي تطلُّ على صحن القلعة

(اللوح١٢)

الأجنحة البنائيَّة التي تطلُّ على داخل القلعة

(اللوح١٣)

منظر عام لقلعة الخلفة، يظهر به القسم المستطيل

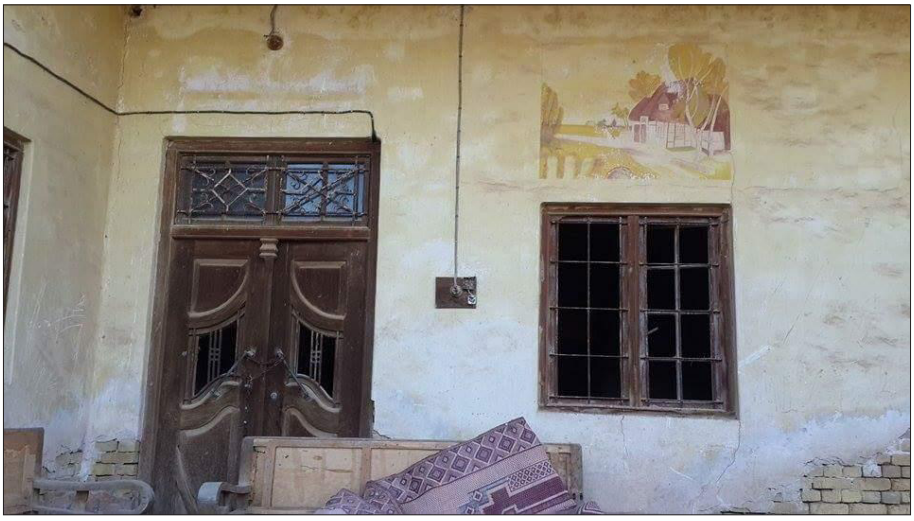

(اللوح١٤)

أحد أبواب القسم المستطيل، وهو باب معمول من الخشب،

وله كتيبة من الحديد

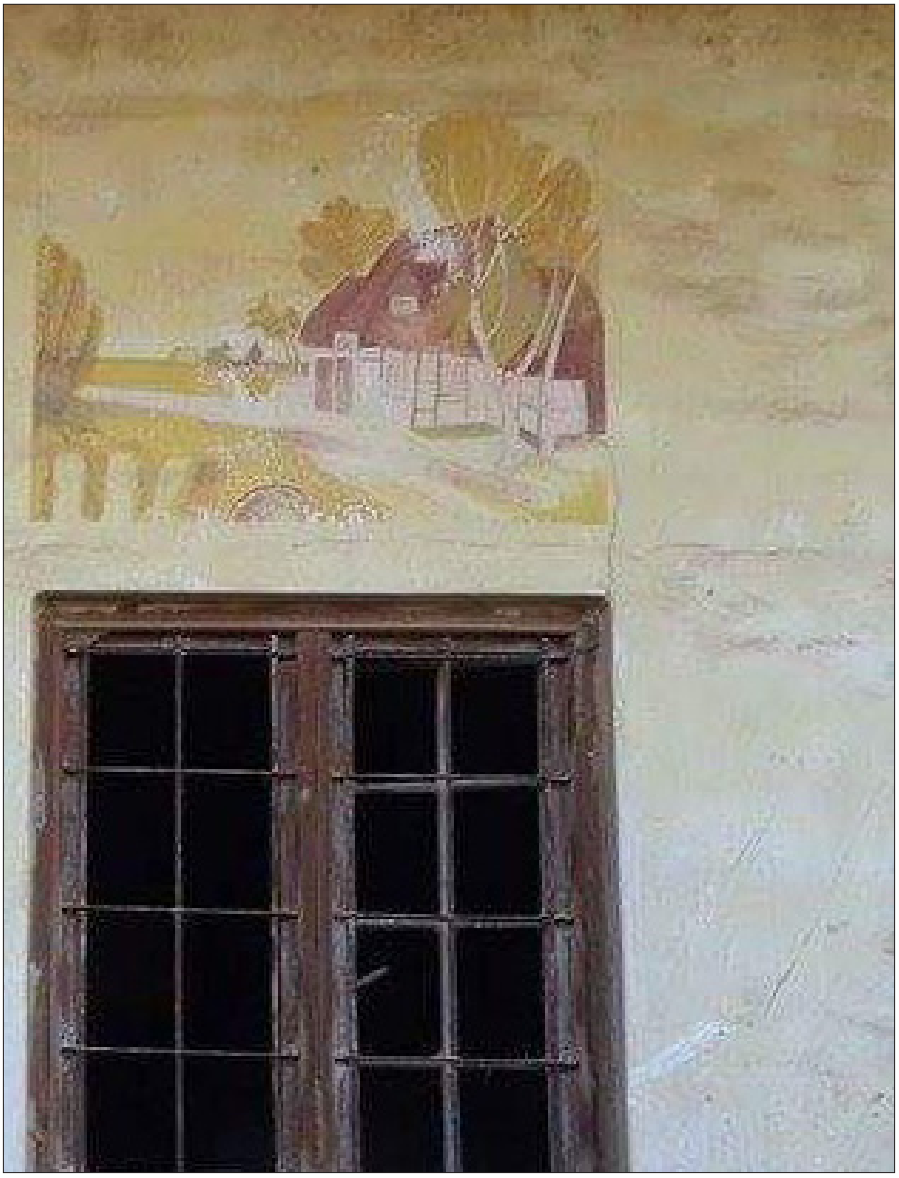

(اللوح١٥)

منظر فنِّي معمول من الألوان المائيَّة يحتوي على منظر طبيعيّ

(اللوح١٦)

المدخل الثاني في القسم المستطيل من قلعة الخلفة معمول من الخشب بمصراعَين

المصادر والمراجع

١. بيـج، بيرتون، البرج في العمارة الإسـلاميَّة الحربيَّة، ترجمة إبراهيم خورشـيد، وعبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٨١.

٢. تقرير سرِّي لدائرة الاستخبارات البريطانيَّة عن العشائر والسياسة، ترجمة عبد الجليل الطاهر، مطبعة الزَّهراء، بغداد، ١٩٥٨.

٣. ثويني، عليّ، معجم عمارة الشـعوب الإسلاميَّة، مطبعة النهار الجديد، بغداد، ٢٠٠٦.

٤. الجادرجيّ، رفعة، دور المعمار في حضارة الإنسان، طبع مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، ٢٠١٤.

٥. الجادرجـيّ، رفعة، في سـببيَّة وجدليَّة العـمارة، طبع مركز دراسـات الوحدة العربيَّة، بيروت، ٢٠٠٦.

٦. الجهينـيّ، محمَّـد، العـمارة الحربيَّـة في الجزيـرة العربيَّـة، الأكاديميَّـة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، ٢٠٠٨.

٧. الجويـبراويّ، جبَّـار عبـد الله، عشـائر الفـرات الأوسـط والجنـوبي في الحِلَّة والديوانيَّـة والسـماوة والناصريَّـة، مطبعـة الأديـب البغداديَّـة، بغـداد، ١٩٩٢.

٨. الحسنيّ، عبد الرزَّاق، العراق قديمًا وحديثًا، الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢.

٩. الخفاجيّ، المراقد والمقامات البهيَّة في الحِلَّة السيفيَّة، طبع مؤسَّسة الأستانة الرضويَّة المقدَّسة، مشهد.

١٠. الدرَّاجيّ، سعدي إبراهيم، عمارة القلاع في شمالي العراق ١٠٣٥-١٢٨٩هـ/ ١٦٢٥-١٨٧٢م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كليَّة الآداب، ١٩٨٥.

١١. السمَّاك، حسن عليّ، القلعة ودورها العسكريّ والسياسيّ في منطقة الفرات الأوسط (قلعة شخير أنموذجًا)، المؤتمر العلميّ الأوَّل، جامعة ميسان، العدد١-٢، الجزء الثاني، ٢٠١٠.

١٢. السمَّاك، حسن عليّ، عشائر منطقة الفرات الأوسط ١٩٢٤-١٩٤١، دار الفرات للطباعة، بابل، ٢٠١٤.

١٣. الشمَّريّ، إبراهيم سرحان، البرج في العمارة العربيَّة الإسلاميَّة في العراق حتَّى نهاية العصر العبَّاسيّ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كليَّة الآداب، ١٩٩٦.

١٤. الشمَّريّ، إبراهيم سرحان، قلعة النصر في مدينة المسيَّب (دراسة ميدانيَّة)، مجلَّة كليَّة التربية الأساسيَّة للعلوم التربويَّة والإنسانيَّة، العدد٤١، ٢٠١٨.

١٥. الطرفيّ، الشيخ عزيز جفَّات، مدن عراقيَّة على ضفاف الفرات، دار الصادق للطباعة، بابل، ج٢.

١٦. عـوض، عبد الرضا، الدرَّة البهيَّة في تاريخ المدحتيَّـة، مطبعة الضياء، النجف الأشرف، ٢٠٠٦.

١٧. عوض، عبد الرضا، الشـوملي نشـأتها وتطوُّرها- دراسة في الأوضاع العامَّة، دار الفرات للطباعة، بابل، ٢٠٠٩.

١٨. غالـب، عبـد الرحيم، موسـوعة العمارة الإسـلاميَّة، مطبعة جـروس برس، بيروت، ١٩٨٨.

١٩. قـرى لـواء الحِلَّـة، الحِلَّة في مجلَّـة لغة العـرب، أعـداد مركز إحيـاء التراث، منشورات دار مخطوطات العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، مطبعة دار الكفيل، كربلاء المقدَّسة، ٢٠١٦.

٢٠. قلعجـي، عبـد الفتاح رواس، حلـب القديمـة والحديثة أسـماؤها وحكَّامها وأحداثها، أبوابها وأسواقها وأحياؤها، مؤسَّسة الرسالة، حلب، ١٩٨٩.

٢١. محمَّد، غازي رجب، التحصينات الدفاعيَّة في مدينة بغداد المدوَّرة، موسـوعة الجيش والسلاح، دار الحريَّة للطباعة، بغداد، ١٩٨٨، ج٣.

٢٢. الميَّالي، رجوان فيصل، العمائر العسـكريَّة في وسـط العراق وجنوبه (تخطيطها وعمارتهـا) ١٩١٤-١٩٥٨م، أطروحة دكتوراه غير منشـورة، جامعة بغداد، كليَّة الآداب، ٢٠١٦.

٢٣. الميَّـالي، رجوان فيصل، القلاع في وسـط وجنوب العـراق عمارتها وتخطيطها خلال فترة الاحتـلال العثـماني ٩٤١-١٣٣٦هـ/ ١٥٣٤-١٩١٧م، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كليَّة الآداب، ٢٠٠٩.

٢٤. الميَّـالي، فيصل غازي، لفظة روبيانـة أو ربيانة في ناحية المدحتيَّة في محافظة بابل ماذا تعني، مباحث فراتيَّة في الجغرافية والتاريخ والآثار، مطبعة المارد العلميَّة، النجف الأشرف، ج١، ٢٠١٠.

٢٥. الهاشميّ، نسيبة محمَّد، الشرفات ظهورها وتطوُّرها من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كليَّة الآداب، ١٩٩٥.

٢٦. وزيـري، يحيـى، العمارة الإسـلاميَّة والبيئة، سلسـلة عـالم المعرفـة الكويتيَّة، العدد٣٠٤، مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٤.

٢٧. وزيري، يحيى، جماليَّات المفردات المعماريَّة في المجتمعات العربيَّة والإسـلاميَّة سلطنة عمان أنموذجًا، مجلَّة عالم الفكر، العدد٤، المجلد٣٤، ٢٠٠٦.